تفاعل المسيحيين مع المؤسسة العسكرية في بلاد المغرب والأندلس – فترة الموحدين أنموذجا-

أ.م.د علي عطية شرقي
جامعة بغداد / كلية التربية ابن رشد للعلوم الإنسانية

الملخص:

كان التواجد والتفاعل المسيحي في الحياة السياسية والعلمية والثقافية ليس استثناءً، بل كانت هي القاعدة التي أستند إليها التاريخ العربي الإسلامي، الذي سطرته كثير من الكتب في حقب تاريخية مختلفة، وفي هذا البحث حاولنا فيه تجذير بدايات التفاعل المسيحي مع الدولة الموحدية، وقد اتضحت فيه حقيقة تاريخية مفادها ان النصارى او المسيحيين كانوا جزءا طبيعيا من الشرائح التي كانت منضوية للقبائل العربية والإفريقية، والتي سكنت العديد من مدن المغرب العربي، وان بعضهم كان جزءا من البلاد المفتوحة حرباً، اما البعض الآخر فكان جزءا من أسرى العرب، الذين أصبحوا القاعدة البشرية التي دخلت ضمن حدود وحكم الدولة العربية الإسلامية وحكمها في بلاد المغرب والأندلس، ومن ثم أصبحوا جزءا طبيعيا من العاملين في العديد من مفاصل الدولة.

ولأننا نتحدث عن التفاعل المسيحي مع المؤسسة العسكرية في بلاد المغرب وتحديدا في مدة الموحدين، فلابد أن نذكر ان هذه المؤسسة قد ضمت بقايا الجيش المرابطي من عناصر، صنهاجة والسودان والروم وغيرهم، فضلاً عن الاستعانة بالقبائل العربية التي خضعت لهم من بني هلال وسليم، كذلك تشجيع الأتراك الغز على الالتحاق بجيش الموحدين.

وكان الخليفة بصفته القائد العام لهذه المؤسسة العسكرية يشرف على عسكره مباشرة، ويستعرض عسكره من حين لآخر، وفي أغلب الأحيان كانت قيادة الجيش تعقد لأبناء الخليفة، ولشيوخ الموحدين أو أبنائهم، فضلا عن اهتمام الخلفاء الموحدين بصنوف الجيش، فانهم اهتموا بصناعة السفن الحربية، إذ أضافوا العديد منها لأسطولهم العسكري ولاسيما بعد سيطرتهم على اسطول المرابطين، ثم زاد هذا الاهتمام بعد سقوط مدينة المرية سنة(٥٤٢هـ/١١٤٧م)، لموقعها الجغرافي والاستراتيجي المهم.

ولقد كان لحنكتهم الإدارية والعسكرية، دورها الكبير في استحداث الموحدين ديوانا للجند، يختص بالعسكر النظاميين، وديوانا آخر يسمى بديوان التميز يترأسه كاتب موثوق يسمى كاتب ديوان التميز، ويبدو ان الموحدين . خلفاء وأمراء وقادة . استطاعوا بحكمتهم من ان يشركوا العنصر المسيحي في المؤسسة العسكرية، الذين كان لهم نصيب في ان يكونوا فرسان في الحرس الخاص للخليفة، مما يظهر النفوذ الذي تمتعوا به داخل أروقة البلاط الأميري.

Christian Interaction in the Military Institution Almohad Era--In Morocco and Andalusi

Asst. Prof. Dr. Ali Atiyah Sharqi
Baghdad University / Education College- (Ibn – Rushd)

Abstract:

It was a presence and Christian interaction in the political, scientific and cultural life, is not an exception, but it is the rule that Ostendh the Arab Islamic history, which is really wonderful lot of books in different historical periods, and in this paper we address it to the study of the beginnings of the Christian interaction with the Almohad dynasty, and emphasize two facts : -

First, Christians or Christians Cano natural part of the slides that were once part of the Arab and African tribes that inhabited many cities in the Maghreb, and that some of them were part of the open country, war, and other Kanu part of the prisoners of the Arabs and who have become human-Qaeda, which entered within the confines of the rule of the state Arab Muslim in the Maghreb and Andalus, and thus have become a normal part of working in many aspects of the state.

Almohad military institution had included the remains of the army of Almurbati , Sanhaja, Sudan, Roman and others. It had recoursed by Arab tribes (Bani Hilal and Saleem) as well as, encouraged the Turks to join Almohad Army. In fact, the caliph as being The General Commander of the military institution had been overseen the army directly, and reviewed it from time to time. Most often army chief was held for the sons of the caliph and the elders of the Almohad or their sons.

Not only Almohad caliphs were interested in forms of military but also they were interested in warships industry. They had added many of them to their fleet, especially after the control of the fleet of Almurabitien. This interest increased after the fall of Almería City (542 AH / 1147 AD) because of its important geographic location.

It is important to mention that Almohads by their military and administrative experience had established a special chamber for regular soldiers and another chamber which called the Altamaize Diwan that headed by trusted writer called the writer of Almamaize Diwan. Moreover, by their experience they had attracted the Christians to this military institution as being one of the most important state agencies.

البدايات الأولى لانضمام المسيحيين في جيش دولة الموحدين :-

ما أن سيطر الموحدون على زمام الحكم، حتى وجهوا جل اهتمامهم بالجيش، فحظي اهتمام الخلفاء الموحدين بهم، من حيث التدريب والتسليح، وتهيئة كل المستلزمات من مال وجهد، كي ينهضوا بهذه المؤسسة العسكرية، ولا سيما في عهد الخليفة عبد المؤمن الذي كان يشرف بنفسه على تدريب الجند.

لقد جاء اهتمام خلفاء الموحدين بهذه المؤسسة بدافع الحفاظ على أمن دولتهم المهددة خارجيا، وحماية دولتهم داخليا من تمردات القبائل المغربية المعارضة.

وتشير المصادر التاريخية الأندلسية الى حرص الخليفة عبد المؤمن على ضم بعض المتطوعين من المسيحيين في كتائب عسكرية، وذلك من خلال اسخدامهم كفرقة حراسة لحماية الخليفة وحاشيته، ويبدو ان جلب هذه المجاميع وضمهم الى كتائب الجيش ليس جديداً، انما ظهر منذ عصر المرابطين، اذ كانت اسبانيا اقرب المناطق للمغرب العربي الإسلامي فجلب فرق عسكرية أصبح امراً معروفا. [1]

ولا نجافي الحقيقة التاريخية حين نقول من ان ضم المسيحيين للمؤسسة العسكرية وانخراطهم فيها كانت في زمن الخليفة عبد المؤمن الموحدي المعروف باهتمامه بالجانب العسكري، فضلا عن اهتمامه بالجانب الثقافي والتعليمي كما يؤكد ذلك المؤرخ المراكشي الذي يصفه قائلا: (... مؤثرا لأهل العلم، محبا لهم، محسنا إليهم، يستدعيهم من البلاد الى الكون عنده والجوار بحضرته، ويجري عليهم الأرزاق الواسعة ويظهر التنويه بهم، والإعظام لهم).[٢] كما كان اهتمامه واضحاً في تنظيم المؤسسة العسكرية وقد عمل على إنشاء معسكرات في قصره لتدريس رجال السياسة والحكم وتعليمهم، حتى انه انشأ بحيرة صناعية كبيرة في بلاد المغرب لتعليم المقاتلين الفنون الحربية، وتذكر الأخبار من ان هذا الخليفة كان يختبر المقاتلين الموحدين بنفسه.[٣] ومن المحتمل انه أشرك كثير من العناصر والمجاميع العسكرية الذي يثق بهم ولاسيما الحرس الخاص والخليفة وحاشيته من الفئات المسيحية.

ولابد ان نقول ان ضم المسيحيين كمقاتلين في بعض الكتائب والفرق الحراسة التابعة للخليفة يؤكد رغبة هذا الخليفة، الهادفة الى عدم عزل هذه الطائفة او الشريحة الاجتماعية وحرص هؤلاء الخلفاء على ان تأخذ دورها في التفاعل مع مؤسسة الخلافة، ويثبت بضرس قاطع ثقته بهم، ويقابلها بذات الوقت إيمانهم وثقتهم وولائهم وتفاعلهم المطلق مع مؤسسة الخلافة.

لقد اقترن ظهور المجاميع العسكرية من المسيحية في بعض البلدان والمدن في العصر الموحدي بعهد الخليفة ابي يوسف يعقوب المنصور.[٤] حيث شيد هذا الحاكم قصرين كبيرين واسكن فيها عددا من الجند الروم اذ بلغ عددهم حوالي الألف شخص فضلاً عن نسائهم وأبنائهم.[٥]

وفي عهد الخليفة المستنصر (٦١٠-٦٢٠ هـ / ١٢١٣ – ١٢٢٤ م) وهو العصر الذي اقترن ببداية الأزمة الموحدية بعد (معركة العقاب).[٦]

وقد ذكرت المصادر التاريخية من ان الكتائب المسيحية قد تزايدت وأصبحت تتكون من مجاميع متعددة، منها ما كانت تتواجد في مدينة(مكناس) تحت إمرة قائد قشتالي، ومنها تواجدت في مدينة(مراكش) تحت قيادة قائد برتغالي.[٧]

وحين دققنا في بعض الروايات التاريخية عن أصول العناصر المسيحية وانتماءاتهم المنضوية للكتائب المسيحية في مدن مكناس او مراكش عن مثيلاتها في العصر المرابطي، وجدنا ان أصل المنضوين المسيحيين لهذه الكتائب إنما كانوا جزءا من أسرى الحرب التي خاضتها الدولة المرابطية مع بعض الثغور، والذين كانوا قد تطوعوا في هذه الكتائب والتزموا بخدمة الخلفاء الموحدين بمحض إرادتهم.[٨] وقد أشار المراكشي[٩]، الى ان لدى قبائل المصامدة جندا من سائر أصناف الناس، كالعرب، والغز، والروم، غير انه استخدام هذه العناصر العسكرية في عصر الموحدي كان أكثر حضور ولاسيما في عهد الخليفة المأمون[١٠]، والذي تجذرت الأزمة في عهده، حتى أصبح عهدا مثقلاً بالاضطرابات والتي أسفرت عن الإطاحة به من قبل احد اخوته مما دفعه للاستنجاد بأحد ملوك قشتالة لإمداده بحاميات عسكرية بهدف استرجاع سلطته في مراكش.[١١]

وتشير الروايات الى ان عدد الجنود المسيحيين كان ينقص ويزيد في بعض المراحل ، اما عن أعدادهم من الذين استقدمهم المأمون لنجدته فقد قدر بحوالي اثني عشر ألفا.[١٢] فضلا من ذلك فان رافداً من روافد الدخول المسيحي وعسكرتهم لبلاد المغرب الإسلامي، هو الأسرى المسيحيين الذين وقعوا في قبضة المسلمين عن طريق الحروب او القرصنة البحرية التي بلغت ذروتها في العصر الموحدي.[١٣] ولا ننسى البعثات التبشيرية التي أرسلتها البابوية لخدمة الطائفة المسيحية الموجودة في المغرب الإسلامي للقيام بعمليات التبشير الديني داخل المجتمع الغربي، فقد ادت دوراً مهما في تاريخ المسيحية في المغرب الإسلامي.[١٤]

اما في عهد المرتضى[١٥] (٦٤٤-٦٦٥ هـ / ١٢٤٦-١٢٦٦ م)، فقد ازداد إعداد المسيحيين القاطنين في مدن المغرب، وذلك، نتيجة لرغبة الخلفاء في الاعتماد عليهم سواء كمجندين او عاملين في مؤسسات الدولة الأخرى، وقد جرت مراسلات بين الخليفة(المرتضى) وبين(البابا انرست الرابع) الذي تمنى على الخليفة الحفاظ على المصالح المسيحية الموجودة في بلاد المغرب، وقد وعد الخليفة بذلك باستعداد الخلافة الموحدية لاستقبال الشخص الذي تتوسم البابوية فيه المقدرة على أدارة شؤون ابناء جلدته من المسيحيين، وبذلك كتب البابا ما نصه ((... اسعدكم الله بتقواه ان توجهوا لهؤلاء النصارى المستخدمين في بلاد الموحدين من ترونهم يرسم ما يصلحهم في دينهم ويجبرهم على معتاد قوانينهم، فتخيروا من أهل العقل الراجح والسمت الحسن،

ومن يسير بالنزاهة على واضح السنن ممن يتميز بالخدمة والفضل المنتخب، وذلكم هو الذي إذا تعين من قبلكم مستجمعاً الصفات المذكورة ومتحلياً بالخلال المشكورة))[١٦]

هذا الأمر اوجد شكلا من اشكال التفاعل المقرون بالرضى بين مؤسسة الخلافة والمتطوعين من أبناء المسيحيين، اذ انعكست هذه الثقة من بعد ان سمح الخليفة الموحدي المرتضى لإعداد كبيرة من المسيحيين للانخراط في صفوف الجيش الموحدي، وأجزل عليهم العطاء[١٧] وقد تدرج البعض منهم حتى وصل الى درجات متقدمة في المؤسسة العسكرية الموحدية، وهذا دليل على مدى الثقة التي منحت للمسيحيين في هذا العهد، وليس ادل على ذلك من اتخاذ الخليفة المرتضى الطبيب المسيحي ابن سهل طبيبا خاصا له ولعائلته، حتى أصبح من المقربين جداً للخليفة، ولا يرد له أمراً .[١٨]

ومن نافلة القول، واستكمالاً لهذا الجانب العسكري، فان العطايا والمنح كانت تجزل بسخاء عليهم ولاسيما في أثناء الحملات العسكرية، فضلا عما كان يوزع عليهم في الاحتفالات العامة والمناسبات الخاصة، اما مرتبات الجند، فكانت تصرف لهم ثلاث مرات في السنة، في حين الجند الغز كانت مرتباتهم شهرية. [١٩]

طبيعة الدور العسكري للمسيحيين:

أدى العنصر المسيحي دوراً مهماً في الحياة السياسية والعسكرية كما اسلفنا، سواء في عصر المرابطين او في عصر الموحدين، ففي عهد يوسف بن تاشفين مثلا[٢٠] ضم أعداد كبيرة منهم ليكونوا حرساً خاصين له، ثم ازداد شأنهم مع مرور الوقت فبدؤوا يحتلون ويشغلون مفاصل مهمة في الدولة المرابطية والتي عهدت إليهم جباية الضرائب ومسك سجلاتها، وضبط دارتها، لما يتمتعون به من فنون الحساب والدقة في هذا الجانب المفصلي المهم للدولة.[٢١]

استغل الموحدون توغل المسيحيين في داخل المؤسسة العسكرية المرابطية، بعد ان أصبح بعضا منهم قادة فرق في الجيش المرابطي، وتذكر المصادر من ان الخليفة عبد المؤمن أرسل إليهم[٢٢] رسولاً ليتفقوا معهم على مساعدته على عملية إسقاط حكم المرابطين، فوافقوا على ذلك[٢٣]، وقد عزى بعض المؤرخين موافقة المسيحيين على التعامل مع الموحدين لعوامل متعددة، منها قناعتهم بان الدولة المرابطية قد انتهت وفي طريقها للزوال، والعامل الآخر انما يعود الى رغبة منهم في الحفاظ على المكاسب السياسية والعسكرية والإدارية التي حصلوا عليها، لذلك اتفقوا سراً مع الموحدين على فتح أبواب العاصمة لدخول القوات الموحدية مقابل منحهم الأمان والبقاء في مناصبهم وربما الحصول على امتيازات أخرى من خزانة الموحدين.[٢٤]

ان طبيعة التفاعل والرضى والتقدير لجهود المسيحيين من خلفاء الموحدين قد شجعت من دخول المسيحيون من الروم والصقالبة في خدمة الدولة الموحدية منذ أيامها الأولى وعلى نطاق واسع، فقد استغل عبد المؤمن وجودهم في إخماد ثورة محمد بن هود الذي كان اول من ثار على الموحدين في بلاد الأندلس، فهو سليل اسرة بني هود أصحاب مملكة سرقسطة التي سيطر عليها المرابطون سنة (٥٠٣ هـ / ١١٠٩م) وانتزعوها من عماد الدولة ابن ابي جعفر بن الهود، ثم انتهز ابنه سيف الدولة فرصة ثورة الأندلسيين على المرابطين سنة (٥٣٩ هـ / ١١٤٤م) فقام بثورة على المرابطين كما ساعد الثوار الآخرين حتى أصبح أميرا على شرقي الأندلس ثم قتل سنة (٥٤٠ هـ / ١١٤٦م) في موقعة البسيط ضد الأسبان.[٢٥]

والجدير بالذكر ان أسرة(بني هود) لم تشترك بعد هذا التاريخ في الإعمال السياسية والعسكرية خلال مدة طويلة من عصر الموحدين، إذ لم يشتهر أحدا منهم آلا محمد بن هود الذي قام بثورة على الموحدين، لكن الخليفة عبد المؤمن وبمساعدة الفرق المسيحية في الجيش الموحدي قد تمكن من إخماد ثورة ابن هود.[٢٦] ونتيجة لذلك ثار عليه اهل شرقي الأندلس ولاسيما أهل لورقة وبلنسية، وقد استطاع ابن مردنيش[٢٧]، من القضاء عليها وقد أغضب هذا الامر الدولة الموحدية التي كانت لها علاقات بالثوار، لهذا أرسل الخليفة(عبد المؤمن) رسالة الى(ابن مردنيش) حملها احد حراسه الشخصيين من الصقالبة المسيحيين، مفادها ان يدخل ابن مردنيش في طاعة الموحدين، لكن الأخير رفض بشدة واخذ يغزو بلاد الأندلس التابعة للموحدين بغية الاستيلاء عليها.[٢٨]

ففي سنة (٥٥٤ هـ/ ١١٥٩م) سار بقواته من مدينة(مرسيه) بالتعاون مع قوات اسبانية، فسيطر على مدينة(جيان) ثم واصل سيره الى مدينة قرطبة، فشدد عليها الحصار، لكنها كانت عصية عليهم لصمود أهلها ووواليها.[٢٩]

بعد ذلك واصل السير الى مدينة(اشبيلية) فحاصرها ثلاثة ايام، لكنه فشل في السيطرة عليها، لقوة مقاومة أهلها وشراستهم، وفي سنة (٥٥٥ هـ/ ١١٦٠م) بعث(ابن مردنيش) جيشاً بقيادة(إبراهيم ابن همشك)[٣٠]، للاستيلاء على قرطبة فحاصرها حصارا مريرا، فذاقت الأمرين من هذا الحصار وقتل واليها بسبب كمين دبر له، وبعدها سار(ابن همشك) الى مدينة(قرمونة)، فاستولى عليها بالتعاون مع احد زعمائها المدعو(عبد الله بن شراحيل).[٣١] وقد حاول(ابن همشك) السيطرة على اشبيلية فشدد عليها الحصار وانزل فيها أفدح الخسائر، وهذا الأمر دعى واليها (ابا يعقوب يوسف) ان يستنجد بوالده الخليفة عبد المؤمن، وكانت الخطوة الأولى التي قام بها عبد المؤمن هو المباشرة فورا ببناء قاعدة حربية في جبل طارق وعبر الأندلس بجيش كبير من العرب

والبربر والمسيحيين من روم وصقالبة، واجتمع هناك بزعماء الموحدين بالأندلس وأمر قادته بغزو (ابن مردنيش) وقتاله.[٣٢]

عزم الموحدين على غزو بلاد مردنيش والقضاء عليه لكن هذه الخطوة تعثرت بوفاة الخليفة عبد المؤمن فجأة في جمادي الأخرى من عام ٥٥٨ هـ / ١١٦٢م.[٣٣] ولابد ان نذكر ان الفرق والكتائب المسيحية كانت قد أدت دوراً مهماً في الجيش الموحدي، إيجاباً في الدفاع عن خلافته وسلبا في التدخل في الخلافات التي نشبت داخل البيت الموحدي بين أولاد عبد المؤمن حول أمر الخلافة، ولم يحل هذا الخلاف حتى سنة (٥٦٣ هـ / ١١٦٧م) باعتلاء (يوسف بن عبد المؤمن) العرش الموحدي وفي عهده استمرت الفرقة المسيحية تؤدي المهام الموكله لها، لكن لانعرف أسباب نقل مقر إقامة أفرادها خارج العاصمة مراكش.[٣٤]

لكن هذا الأمر لم ينه تدخل بعض قادة الكتائب العسكرية – وهم في الغالب اسبانيون قشتاليون – في أمر بيعة الخلفاء الموحدين في ترشيح هذا الخليفة او ذاك، وفي هذا المعنى يشير (ابن ابي زرع) في حديثه لخلافة عبد الواحد الرشيد[٣٥]، ((اخذ له البيعة كانون بن جرمون السفياني وشعيب أخو قاريط الهسكوري ومرقسيل قائد الروم)) وان التدقيق في جذور هذه الشخصيات المسيحية تؤكد بنحو لا لبس فيه الى الدور الرئيس الذي يؤديه قادة الجند من الروم المسيحيين.[٣٦] ومن مسيحي قرطبة ومراكش وقشتالة داخل البلاط الموحدي.

ولم يقتصر الأمر على الرجال فقط، بل ان النساء المسيحيات أصبحن يتدخلن في امر البيعة، وتبرز في هذا الشأن زوجة الخليفة الموحدي المأمون التي تدعى (حبابه) وهي جارية مسيحية أدت دوراً مهماً في هذا الجانب.[٣٧]

ولابد ان نعرج هنا الى أنموذجاً من نماذج التفاعل الاجتماعي الذي كان يعبر عن اندماج بعض البيوتات والعوائل المسيحية في بلاد المغرب العربي والذي تمثل بظاهرة الزواج بين المغاربة والنساء من الطائفة المسيحية واعتناقهم الإسلام، وهذه ظاهرة كانت اكبر دليل على عمق هذا التفاعل والذي شمل معظم مفاصل الدولة، ولم يتأخر الخلفاء الموحدون من استعمال الفرق العسكرية المسيحية لاستئصال شأفة الثوار، إذ يذكر ان الخليفة الموحدي المرتضى حارب الثائر علي بن بدر بواسطة قائد عسكري اسمه Dunlop، كما ان المعركة الفاصلة التي وقعت بين الموحدين والمرينيين استأسدت فيها الفرق القشتالية، ويعود الفضل لقائدهم ابن القمط الذي تمكن من وضع حد لحياة الأمير المريني ابي معروف محمد.[٣٨]

لقد أسهمت عدة معطيات في تحديد طبيعة الدور الذي كان يقوم به المسيحيو في المغرب الإسلامي، وإعطائها مكانتها الإنسانية والتي كانت تصب في خدمة صالح هذه الطائفة وتحسين أوضاعها وكان في مقدمة العوامل التي أسهمت في تفاعل المسيحيين، وتعاظم دورهم في الحياة

السياسية والعسكرية في الدولة الموحدية، انما يكمن في مبادئ العقيدة الإسلامية، القائمة على مبدأ العدل والإحسان، والذي أشاع مبدأ التسامح والتعايش السلمي مع الآخر وحماية دولة الموحدين للمسيحيين، انطلاقاً من محافظتها على مصالحها خاصة الاقتصادية منها، وقد ساهم في دعم هذا الدور تخل الكنيسة المستمر لحماية رعاياها المسيحيين في بلاد المغرب، والذي ترافق مع قوة الدول المسيحية التي تنتمي إليها بعض الطوائف المسيحية، إذ غالباً ما كانت تلك الدول تلوح بالتهديد وتستعمل ورقة السحب كتائبها العسكرية، ومن ثم التأثير فيهم في حالة عدم احترام الموحدين لاتفاقياتهم السلمية او المساس بمصالح رعايا المسيحيين، ومن ثم استفادت الطوائف المسيحية في بلاد المسلمين من روح التسامح الديني الإنساني التي شاعت في ربوع بلاد المغرب والأندلس.

ولعل ابرز مظاهر هذا التعايش سماح الخلفاء الموحدين لمختلف الفئات المسيحية من تجار، وجند، وأسرى، وغيرهم، ببناء كنائس لهم في العديد من عواصم ومدن المغرب العربي وممارسة شعائرهم الدينية بكل حرية.[٣٩]

فقد عاش أهل الذمة في بلاد المغرب الإسلامي ولاسيما في عهدي المرابطين والموحدين أوضاعا خضعت في بعض الأحيان للأحوال الدينية السائدة وفي أحيان أخرى للأحوال اقتصادية او صراعات سياسية، فشهدوا نتيجة ذلك مدة من الشدة ومدد من التسامح، وهذا يرجع كما أسلفنا لأوضاع الدولة وأحوالها نفسها على الرغم من حرص قادة دول المغرب في الحقب المختلفة على تطبيق تعاليم الإسلام وتشريعاته التي تنص على احترام الآخر، لذلك تمتع المسيحيون تحديدا ونحن بصدد دراسة جانب مهم من حياتهم، بحقوقهم الإنسانية بمختلف جوانب الحياة، فتقلدوا مناصب إدارية وعسكرية عليا في الدولة الموحدية، وحتى قبل ذلك التاريخ في عصر المرابطين الذين وصفوا من قبل خصومهم بالغلظة في معاملة المسيحيين، فالروايات تشير الى ان الأمير علي بن يوسف قد أشركهم في الجيش وفي البلاط الأميري، ولم يكن هذا الميل كون ان والدته مسيحية، بل ان الثقة التي أبدوها اتجاه حكم المرابطين جعل منهم فرسان في حرسه الخاص، فضلا عن دورهم في تقديم البيعة لكل أمير مرابطي جديد، مما يظهر النفوذ الذي تمتعوا به في تلك المدة. [٤٠]

مظاهر الاحتفالات العسكرية لدولة الموحين:

شهدت المدن المغربية ولا سيما الكبرى منها، العديد من الاحتفالات العسكرية، التي كانت تقام في مناسبات مختلفة، كتلك التي تجري قبيل مسير الجيوش الموحدية للمعارك، او التي تقام تخليداً لانتصار عسكري حققه الموحدين، فقد اعتاد خلفائهم استعراض قواتهم العسكرية عللا مرأى من الناس، فما يؤثر على الخليفة(عبد المؤمن) كان يستعرض قواته بين الحين والآخر، اذ كان

يجلس في مكان يطل منه على عسكره، فتمر من أمامه كتائب الجيش الموحدي(كتيبة اثر كتيبة، لا تمر كتيبة الا والتي بعدها أحسن منها جودة سلاح، وفراهة خيل، وظهور قوة). [٤١]

وجرت العادة ان يتقدم الاستعراض العسكري القادة المهمين، وفرسان بني عبد المؤمن، وأهل الجماعة، ثم طبقة الخمسين، ثم بقية القبائل، فسائر الموحدين. [٤٢]

وقد سار الخلفاء الموحدين على نهج خليفتهم عبد المؤمن في استعراض قواتهم، اذ يذكر أبن صاحب الصلاة،[٤٣] ان الخليفة(يوسف بن عبد المؤمن) أمر في عام(٥٦٦هـ) باستعراض عسكري عام، تشارك فيه صنوف قواته استعداداً للمشاركة في الحروب، وقد امتد هذا الاستعراض لمدة شهر كامل، فكان الخليفة ابو يعقوب يجلس في قبة ضربت له في رحبة قصر الحجر، والى جانبه اشياخ الموحدين، ورؤساء قبائل العرب.

وللموحدين نظاماً خاصاً في استعراض الجيوش والمواكب العسكرية، خلال مسيرها للحروب، وبقي العمل بهذا النظام حتى نهاية الدولة الموحدية، اذ احتفل به الخليفة(إدريس الملقب بابي دبوس) آخر الخلفاء الموحدين. [٤٤]

وهذا الاستعراض في الواقع، وضع أساسه زعيمهم(محمد بن تومرت) إذ يشير ابن القطان بقوله(...علم الناس الحركة كيف تكون، أذا عزموا على الركوب، ان ينادي منادي: الاستخارة بالله، والتوكل عليه، يكون بينه وبين الأمير مقدار ربع ميل، ويكون متقدماً على الناس، خلف اللواء المذكور، في جملة من يختص به، ثم تتبعهم الرايات الكبار، والطبول، والعسكر المعروفون بالساقة [٤٥].

حرص الموحدون على الالتزام بهذا النظام العسكري، وأضافوا اليه وضع المصحف الذي اهداه أهل الأندلس للخليفة(عبد المؤمن بن علي)، فضلاً عن موطأ ابن تومرت الذي كان يحمل على دابة مزينة بالأقمشة الفاخرة. [٤٦]

وقد قدم لنا ابن عذارى،[٤٧] وصفاً تفصيلياً لموكب الجيش الموحدي المتوجه الى بلاد الأندلس عام(٥٧٩هـ)، والتي كانت آخر غزوة للخليفة ابي يوسف الموحدي، إذ يقول:(وفي يوم السبت الخامس والعشرين لشوال المذكور، أمر الناس بالحركة، وركب أمير المؤمنين على عادة ركوبه من السكينة والوقار، والهيئة له في الإعلان والاسرار، ودعا الناس له بالتأييد والنصر على جميع الكفار، وقد تقدم أمامهم، علامة الأبيض مع الرَجالة على العادة، ومعه مصحف عثمان بن عفان(رضي الله عنه) على جمل ابيض مرتفع، وعليه كله حمراء تصونه، وهو مرصع بنفيس الجواهر والياقوت، ويليه مصحف المهدي على بغل، وبنوه واخوته السادات خلفه، وعليه رايات مختلفة الالوان، وكان خروجه على باب دكالة من ابواب مراكش).

وللموحدين احتفالاتهم الخاصة مع كل انتصار عسكري، اذ تقرع الطبول في العاصمة، وتُعد الموائد الحافلة باصناف الطعام للناس، بينما يتسابق الشعراء والادباء الى مجلس الخليفة لالقاء القصائد التي تمجد ذلك الانتصار، ومن الشواهد على ذلك، الاحتفال الذي جرى بالعاصمة مراكش عام(٥٥٥هـ)، بعد انتصار الجيش الموحدي على النورمان، وتحرير موانئ افريقيا. (٤٨)

ويُعد الاحتفال الذي جرى في العاصمة مراكش عام(٥٦١هـ) بمناسبة انتصار الجيش الموحدي على قوات (ابن مردنيش) في شرق بلاد الاندلس، قمة الاحتفالات التي شهدتها المدينة بهذه المناسبة، فقد خرج الخليفة ابو يعقوب الى ظاهر مراكش لاستقبال جموع المنتصرين، وجعلت الرايات والعلامات خلف ركابه، والطبالين مع حشمه وخاصته، وقد امتطى صهوة جواده العتيق، وعلى عاتقه رمح طويل، ووزيره(إدريس بن جامع) يسير ماشياً الى جانبه، وبين يديه العبيد، وقد لبسوا الثياب المختلفة الألوان، وعند وصول عساكر الخليفة الى المكان المعين لإجراء الاحتفال، تبدء مظاهر الاحتفالات، اذ يأخذ الفرسان بالجري واللعب، والطبول تضفي على الاحتفال جمالية وهيبة، ويشارك الخليفة فرسانه في الاحتفال، فيظهر من فروسيته ما يبهر الحضور، وينتزع الإعجاب. (٤٩)

الخاتمة :

ظل المكتوب عن علاقات المسيحيين مع العرب المسلمين مرتبطة بذهنية الباحث والمتتبع بطبيعة هذه العلاقة، وارتباطها بالصراع العسكري والذي توجته الحروب الصليبية في القرنين الخامس والسادس الهجريين، لكن النتائج التي توصل إليها هذا البحث ذهبت الى غير ذلك، فقد وجدنا ان فترة المرابطين والموحدين قد شهدت تفاعلا مسيحيا عربيا إسلاميا، توضحت أولى وشائجه من خلال تطوع وانضمام العديد من الفرق والكتائب النصرانية في المؤسسة العسكرية، الى الحد الذي جعل بعضهم يترقى الى مناصب كبيرة في مؤسسات الدولة.

ثانيا. ان طبيعة هذا التطوع او الانتماء الى مؤسسة الجيش الموحدي، جعل التفاعل المسيحي يأخذ طابعا ولائيا، اي ساهمت هذه الثقة المتبادلة في اعتماد (الخلفاء الموحدين) على هذه الكتائب واعتماد بعضهم ليكونوا جزءا من حرس الخليفة الخاص او حرس لحماية قصورهم.

ثالثا. وهذا الرضى والثقة التي عبرت عن إيمان وولاء الجنود المسيحيين لخليفتهم، قد انعكس بهيئة هبات وعطايا ومكافئات عززت من دورهم وساهمت في كسب ولائهم.

رابعا. وان هذا الدور المتعاظم قد مكن بعض الفرق المسيحية من الانتصار لهذا الخليفة على غيره، وهذا الأمر عده بعض المؤرخين ما كان ليكون لولا تصاعد فاعليتهم او علو لشوكتهم.

خامسا. وان كلا الدورين الايجابي والمتمثل في تفاعل المسيحيين على المستويين العسكري والسياسي للدفاع عن دولة الموحدين او السلبي في تدخلهم في تفضيل او تثبيت هذا الأمير كخليفة على غيره، يثبت بشكل لا يشوبه اللبس عن حقيقة تاريخية مفادها انفتاح وتسامح قادة دولة الموحدين على بقية شرائح المجتمع مهما تعددت دياناتهم ومذاهبهم.

الهوامش والمصادر :

١. بروفنسال، ليفي، الإسلام في المغرب والأندلس، ترجمة سيد محمود عبد العزيز، القاهرة ١٩٥٦، ص١٢٢.

٢. محي الدين عبد الوهاب ابن علي (ت٦٤٧هـ)، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق صلاح الدين الهواري، ط١، القاهرة ٢٠٠٦، ص٢٦٩؛ السلاوي، شهاب الدين احمد بن خالد(ت ١٣١٥هـ)، الاستقصا لاخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق، جعفر الناصري ومحمد الناصري، الدار البيضاء، ٢٠١٠، ١٤٥/٢.

٣. مجهول، الحلل الموشية، تحقيق، سهيل زكار وعبد القادر زمامة، الدار البيضاء، ١٩٧٨، ص١٥٠.

٤. ثالث خلفاء الموحدين، خلف والده ابا يعقوب يوسف، تميز عصره بالازدهار والاستقرار السياسي، كما تميز بإعماله ومشاريعه الكبيرة، فبنى مسجد الكتيبة في مراكش وشرع في بناء اكبر مسجد في العالم آنذاك في الرباط، الا انه المنية وافته سنة (٥٩٥ هـ/ ١١٩٩م) ينظر : ابن خلكان (ت ٦٨١هـ) وفيات الأعيان، تحقيق محمد محي الدين، القاهرة ١٩٨٢، ص٤٨٥؛ بوتشيش، إبراهيم القادري، الجاليات المسيحية في المغرب الإسلامي خلال عصر الموحدين، المغرب ١٩٩٥، ص٨١.

٥. بوتشيش، المرجع السابق، ص٩١

٦. وقعت المعركة في ١٥ من صفر سنة ٦٠٩ هـ بالقرب من حصن قديم يسمى العقاب، بين الموحدين بقيادة السلطان محمد الناصر وبين قوات الملك الفونسو الثامن ملك قشتالة، انتهت المعركة بهزيمة الموحدين، وكان لذلك اثر كبير في توطيد حكم المسيحيين في الأندلس. ينظر: ابن فرحون، ابو إسحاق إبراهيم(ت٧٩٩هـ) الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، تحقيق محمد الاحمدي، القاهرة ١٩٧٤، ص١٢٥

٧. ابو شرب، احمد، الصلات البرتغالية المغربية، مجلة الوثيقة العدد الثالث، ١٩٨٢ ص٤٥٥

٨. الطيبي، أمين توفيق، دراسات في تاريخ المغرب والأندلس، الدار العربية للكتاب، ليبيا، ١٩٨٤، ص١٧٣

٩. المعجب ص١٤٦

١٠. إدريس بن منصور، تولى الحكم سنة (٦٢٧هـ/١٢٢٧م) وقد شهدت بلاد المغرب في عهده انقسامات شديدة، وقد استعان المأمون بجيش من الأسبان من الملك الاسباني فرناندو الثالث ملك قشتالة، وفق شروط منها إعطاءه بض الحصون وبناء كنيسة للجند في مراكش، ينظر: المراكشي، المصدر السابق، ص٢٢١.

١١. ابن عذاري، ابو عبد الله المراكشي، (ت نحو٦٩٥هـ) البيان المغرب في اخبار الأندلس والمغرب، تحقيق ليفي بروفنسال، بيروت، ١٩٨٣، ٨٠/٢

١٢. ابن عذاري، المصدر السابق، ٨١/٢

١٣. بدر، احمد، دراسات في تاريخ الأندلس، القاهرة ١٩٥٩، ص٩٠

١٤. العنايني، احمد، الحركات التبشيرية في مصر والمغرب، دار العلم، القاهرة ١٩٦١، ص٢٥٣

١٥. هو ابو حفص المرتضى، عمر بن ابي إبراهيم بن إسحاق بن يوسف بن عبد المؤمن، وهو الخليفة قبل الأخير في سلسلة خلفاء الموحدين، إذ خلفه إدريس الواثق والذي انطوت بمقتله صفحة دولة الموحدين. ينظر: عنان، محمد عبد الله، دولة الإسلام في الأندلس – نهاية الأندلس وتاريخ العرب المنتصرين (العصر الثاني) مكتبة الخانجي، القاهرة ١٩٩٧ ١٣٢/٢

١٦. اللمتوني، شهاب الدين بن علي بن محمد (ت٦٣٢هـ) سيرة الأشراف الموحدين، تحقيق إبراهيم الطرابلسي، الرباط ١٩٨٩، ص ٢٦٦

١٧. مجهول، مجموعة رسائل موحدية من إنشاء كتاب الدولة المؤمنية، حرره وعلق عليه، ليفي برفنسال، مكتبة الثقافة الدينية، المغرب ١٩٤١، ص٢٢٧

١٨. المصدر نفسه، ص٢٢٧

١٩. دندش، عصمت عبد اللطيف، الأندلس في نهاية المرابطين ومستهل الموحدين (عصر الطوائف الثاني)، دار المغرب الإسلامي، بيروت،١٩٨٨، ص٤٨،٤٩.

٢٠. ابو يعقوب، يوسف بن تاشفين بين ابراهيم اللمتوني الصنهاجي (ت٥٠٠هـ / ١١٠٦م)، وحد المغرب وضم الأندلس تحت ملكه وسلطته، تولى إمارة دولة المرابطين واستطاع ان يؤسس إمبراطورية مغربية تمتد من مملكة بجاية شرقا الى المحيط الأطلسي غربا، ينظر: نصر الله، سعدون، دولة المرابطين في المغرب والأندلس (عهد يوسف بن تاشفين)، بيروت ١٩٨٥، ص٣٦؛ التازي، عبد الهادي، التاريخ الدبلوماسي للمغرب، من أقدم العصور الى اليوم، المجلد الخامس (دولة المرابطين)، المغرب ١٩٨٧، ص٨.

٢١. القيرواني، ابو إسحاق إبراهيم (ت٤١٧هـ) تاريخ أفريقيا والمغرب، تحقيق المنجي الكعبي، تونس ١٩٦٨، ص٣١٥

٢٢. عبد المؤمن بن علي بن مخلوف بن يعلي الكومي (٤٨٧–٥٥٨ هـ/١٠٩٤–١١٦٣م) مؤسس الدولة الموحدية، نظم دولته وجعل لها مؤسسات، وكان صره من ازهي عصور بلاد المغرب الإسلامي، للمزيد ينظر: المراكشي، عبد الواحد المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق محمد سعيد العريان ومحمد العربي، القاهرة ١٩٤٩، ص٣٩٢؛ عنان، المرجع السابق ١٨٥/٢

٢٣. المراكشي المصدر السابق، ص٢١٣

٢٤. الذهبي، شمس الدين ابو عبد الله (ت ٧٤٨هـ) العبر في خبر من غبر، تحقيق فؤاد سيد، الكويت ١٩٦٧، ٤٢/٤

٢٥. ابن عذاري، المصدر السابق، ٤٠/٣

٢٦. ينظر: القيرواني، المصدر السابق، ص٣١٦؛ ابن علول، النقراشي، إمارة بني هود في الأندلس، فاس ١٩٨٢، ص٩٥

٢٧. محمد بن سعيد بن محمد بن احمد بن مردنيش الجذامي (٥١٨–٥٦٧ هـ / ١١٢٤–١١٧١م)، ملك شرق الأندلس وكان شجاعاً قوياً، ولي مرسية وضم اليها بلنسية وشاطبة ودانية، واستعان بالفرنج على حرب الموحدين، واتسع نطاق إمارته، فطمع بقرطبة واشبيلية، وكاد يستولي على جميع الأندلس، فنهض الموحدون لقتاله، ينظر: المراكشي، المصدر السابق ص١٥٤؛ الزركلي، خير الدين، الاعلام، دار العلم للملايين، بيروت ٢٠٠٢، ١٣٧/٦

٢٨. ابن صاحب الصلاة، المصدر السابق، ص١٨٨

٢٩. المصدر نفسه، ص١٩٠؛ ابو رميلة، المرجع نفسه، ص١٩٦

٣٠. إبراهيم بن احمد بن همشك، أمير مغربي صاحب جيان بالأندلس، تقرب من يحيى بن غانية بقرطبة واستقل بحصن (شقوبش) سنة ٥٣٩هـ، تزوج بنت محمد بن مردنيش، وأصبحت له الرياسة والامارة، توفي في مراكش(٥٧١هـ/١١٧٦م)، ينظر: ابن الابار، محمد بن عبد الله بن ابي بكر القضاعي (ت٦٥٨هـ)، الحلة السيراء، تحقيق حسين مؤنس، جار المعارف، القاهرة ١٩٨٥، ٢٥٨/٢؛ الزركلي، ٢٩/١

٣١. اشباخ، يوسف، تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، ترجمة وتعليق، بدالله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة ١٩٨٠، ص١٢١

٣٢. ابن صاحب الصلاة، المصدر السابق، ص١٩٠؛ ابو رميلة، المرجع السابق، ص١٩٦

٣٣. ابن ابي زرع، ابو الحسن علي بن عبد الله (ت ٦٢٦هـ) الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، الرباط ١٩٧٢، ص١٩١

٣٤. اشباخ، المرجع السابق، ص١٢٢

٣٥. عمر بن يوسف بن عبد المؤمن الموحدي، الملقب بالرشيد، امير ثائر لكنه لم يفلح، كان في مرسية والياً لشرقي الأندلس، تابعاً لأخيه يعقوب المنصور، وقتل بعد الخلاف الذي دار بينه وبين أخيه. ينظر: المراكشي، المصدر السابق ص٢٠١؛ الزركلي، المرجع السابق ٧٠/٥

٣٦. ابن أبي زرع، المصدر السابق ص٢٥٤

٣٧. بوتشيش، المرجع السابق، ص٩٨

٣٨. المرجع نفسه، ص٩٨

٣٩. للمزيد ينظر: ابن النقاش، محمد بن علي بن عبد الواحد (ت٧٦٣هـ) المذمة في استعمال أهل الذمة، تحقيق عبد الله بن إبراهيم الطريحي، الرياض ١٩٧٠، ص١٩٣؛ العناني، المرجع السابق، ص٢٥٦

٤٠. بروفنسال، المرجع السابق، ص١٢٢.

٤١. المراكشي، المصدر السابق، ص٢٧٠.

٤٢. حركات، إبراهيم، المغرب عبر التاريخ، دار السلمي، الدار البيضاء، ١٩٦٥، ٣٤٢/١.

٤٣. المن بالإمامة، ص٣٤٦.

٤٤. ابن عذارى، المصدر السابق، ص٤٧١.

٤٥. ابن القطان، علي بن حمد بن عبد الملك الكتامي(ت ٦٢٨هـ)، نظم الجمان، تحقيق، محمود علي مكي، معهد مولاي الحسن، تطوان، ب.ت، ص ٤١.

٤٦. المراكشي، المصدر السابق، ٣٢٧؛ الحلل الموشية، ص١٥٣.١٥٢.

٤٧. البيان المغرب، ص١٣١.١٣٠.

٤٨. المصدر نفسه، ص٤١.

٤٩. ابن صاحب الصلاة، المصدر السابق، ص٢١٦.